



باب العامود: شريان القدس الرئيس

ناويا حرمش

كاتبة فلسطينية

ابتدأ شهر رمضان الأخير باحتكاكٍ أدى إلى تشابكٍ بين شباب القدس والاحتلال الإسرائيلي، انتهى مع نهاية الشهر الفضيل بعُدوانٍ ظالمٍ على غزة.

المشاهد التي رأيناها في القدس من اعتداءات لقوات الاحتلال الإسرائيلي على شباب المدينة، مُجسّد بالتأكيد ما نراه من مشاهدٍ حول العالمٍ من ممارساتٍ عنصريةٍ. قد يُذكرُ المشهدُ بما جرى بأمریکا في هبة الأفرقة الأمريكيين قبل عام، ما يجري مع اللاجئين بأوروبا، وغيرها من مشاهد تتجسّد فيها العنصرية، والاستقواء على الضعيف. عنصريةٍ يسطو فيها الأبيض على الأسود.

على مدار تاريخ المدينة، استقطب باب العامود المشهد الأهم. فهو بوابة البلدة القديمة إلى الخارج والداخل.

باب العامود يُسمّى كذلك ببوابة دمشق، وهذا ليس مجرد استطرادٍ كلمات، فلقد كانت البوابة تُؤدّي طريقها إلى دمشق التي كانت تُشكّل المركز الذي حكمت منه بلاد الشام

لبعض الوقت.

اسم «العامود» يعود للفترة الرومانية (على الأرجح في القرن الثاني الميلادي) بالإشارة إلى عامود النصر الذي تم نصبه في ساحة البوابة، حيث تظهر البوابة على خريطة مادبا من القرن السادس. رغم اختفاء العامود إلا أنه تم الحفاظ على الاسم، كدليل على استمرارية المدينة لمئات السنين، بل آلاف السنين؛ ما يكرس الأهمية التاريخية للمدينة، والحفاظ على طابعها التاريخي المنعكس في الحياة اليومية من الفترة الرومانية إلى اليوم.

اليوم، يأخذنا باب العامود إلى شارع نابلس ويضم إليه شارع السلطان سليمان ليُنقِيَ بشارع صلاح الدين. يبدو للنظر كأنه عصب المدينة الرئيس... وهو كذلك.

تطور المخططات الإسرائيلية لمنطقة باب العامود:

بدأ التغيير أو التركيز على منطقة باب العامود عام 2015م، عندما اشتدت هبة السكاكين، والتي امتدت فيها العمليات من منطقة المسجد الأقصى، مروراً بالواد، وانتهاءً باب العامود.

قد نتذكر مهند الحلبي، ومن تلاه من شهداء، وصولاً إلى تلك الساحة؛ محمد علي، وبراء صالح، وعادل حسن عنكوش. عدة شهداء ارتقوا بساحة باب العامود بمشهد يشبه ملحمة شكسبيرية إذا ما نظر المرء الآن للمشهد عن بُعد. عندها بدأ بناء الثكن العسكرية عند المدخل، وتلاه ثكتان عند الشارع قبل النزول إلى الدرجات.

في دراسة قدمها يوناثان مزراحي، مدير جمعية عمق شبيه (متساوي)، تكلم بإسهاب على التغييرات التي رافقت المكان والمحيط منذ عام 2015م، والتداعيات التي حدثت، وكان من شأنها استغلال الاختلال المكان، وضمه في خطه الكثيرة.

يقول يوناثون: «قد يزعم بعضهم بأن منع الناس من الجلوس على درجات الساحة أمر ثانوي، مقارنة بهدم المنازل، أو تقييد الصلاة في الحرم الشريف. ومع ذلك، فإن باب العامود والخطوات الحجرية في الساحة، كانت على مدى عقود بمثابة مساحة عامة مركزية



للفلسطينيين في القدس، بما في ذلك عديد من الشباب الذين يعدونه مكاناً للقاء الأصدقاء، ورؤيتهم كمساحة اجتماعية، يبدو أن بوابة دمشق قد حافظت على استقلالها عن الصراعات السياسية في الحوض التاريخي للمدينة القديمة». ويضيف: «هذا العام، تزامنت بداية شهر رمضان مع إعادة فتح الاقتصاد بالكامل بعد شهور من الإغلاق، خلال جائحة كورونا. منذ البداية، نصبت الشرطة حواجز حول الدرجات الحجرية في الساحة، أمام البوابة لمنع الناس من التجمع والجلوس هناك، كما فعلوا منذ سنوات. في موازاة لذلك، وقد يزعم بعضهم رداً على ذلك، حوادث رشق الحجارة للأرثوذكس المتطرفين».

المراقب للمشهد، عند مدخل باب العامود، يعرف كذلك أن التواجد الإسرائيلي أكثر في السنوات الأخيرة. فعشرات العائلات، ومئات طلبة المدارس الدينية يعيشون ويتواجدون على امتداد السوق المؤدية إلى منطقة الواد والحى الإسلامى (باب حطة) حارة السعدية وغيرها) إلى جانب عديد من العائلات الأخرى، في حي المصراة (العربي) إلى الشمال. على مدار العقد الماضي، كانت هناك، أيضاً، زيادة في أفراد اليهود الأرثوذكس المتشددين، الذين يستخدمون هذه البوابة في طريقهم للصلاة في ساحة البراق.

تشير الدراسة التي تحمل عنواناً بـ«البوابة الأخيرة: الصراع على باب العامود في البلدة القديمة بالقدس» إلى استيثار الحكومة الإسرائيلية وبلدية (احتلال) القدس على مدى عقود، مبالغ مالية غير مسبوق في تطوير منطقة باب العامود، والمراكز التجارية المحيطة شمال البلدة القديمة. إلى جانب أعمال البنية التحتية في المدينة القديمة، تستثمر سلطات الاحتلال الإسرائيلية في موقعين سياحيين متاخمين لباب العامود، هما متحف «الساحة الرومانية» الواقع أسفل باب العامود، و«كهف صدقيا-الصديق إياهو» (مغارة سليمان) الواقع على بُعد عشرات الأمتار من الشرق.

في عام 2020م، قدمت بلدية (الاحتلال) القدس، مخططاً لما يسمى بمنطقة الأعمال المركزية في شرق المدينة، وتتضمن الخطة المنطقة الواقعة بين الجدار الشمالي للمدينة، باب العامود، باب هيرودس، أحياء باب الساهرة، المصراة (العربية)، الأمريكان كولون، وواد الجوز.

(والتي تُعدُّ خطَّة وادي السيليكونِ جزءاً منها).

تَلَفِتُ الدَّرَاسَةُ إِلَى تَطَوُّرَيْنِ إِضَافِيَيْنِ حَدَثَا فِي سَاحَةِ بَابِ العَامُودِ، فِي السَّنَاتِ الأَخِيرَةِ، مُتَمَثِّلَانِ بِالتَّخْلُصِ مِنَ البَاعَةِ المُتَجَوِّلِينَ مِنَ النِّسَاءِ الفِلَسْطِينِيَّاتِ عِنْدَ مَدخَلِ البُؤَابَةِ فِي عَامِ 2018م، وَتَرْكِيْبِ لَافِتَةٍ بِلَدِيَّةِ سَنَةِ 2019م، حُوِّلَتْ فِيهَا سَاحَةُ بَابِ العَامُودِ إِلَى «مَعَالٍ وَهَدَاسٍ»، سُمِّيَتْ عَلَى اسْمِ مُجَنَّدَتَيْنِ قَتَلْتَا بِالقَرَبِ مِنَ البُؤَابَةِ.

رَغِمَ أَنَّ هَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا ظَاهِرِيًّا، غَيْرَ ذَاتِ صِلَةٍ، وَرَغِمَ أَنَّ البَاعَةَ المُتَجَوِّلِينَ الفِلَسْطِينِيِّينَ فِي بَابِ العَامُودِ، هُمْ جُزْءٌ مِنْ تَقْلِيدِ عُمُرِهِ قُرُونٌ فِي البَلَدَةِ القَدِيمَةِ، وَكَانُوا جُزْءًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ هُويَّةِ بَابِ العَامُودِ، فَإِنَّ تَحْوِيلَ اسْمِ السَّاحَةِ إِلَى اسْمِ قَتِيلَتَيْنِ يُجْعَلُ مِنَ المَكَانِ تَدْرِيجِيًّا «نَصَبًا تَذْكَارِيًّا» يُحْمَلُ طَابَعًا إِسْرَائِيلِيًّا وَطَنِيًّا، يُكْرَسُ لِأَحْقِيَّةِ وَجُودِيَّةِ، طَبَعًا تُصْبِحُ دِينِيَّةً وَتُورَاتِيَّةً تَدْرِيجِيًّا؛ مَا يُجْعَلُ المَكَانَ أَكْثَرَ عُرْضَةً لِلاَحْتِكَائِ العَنْصَرِيِّ والقَوْمِيِّ.

تؤكد دراسة عمق شبيهه (متساوي) على أن رغبة «إسرائيل» في الحصول على موطن قدم يمكنها من السيطرة على باب العامود، تتعلق بالأهمية التي أولها مخططو المدينة لبوابات البلدة القديمة. على سبيل المثال، يتم تنفيذ أعمال التطوير في باب الخليل، الباب الرئيسي الذي يربط غرب المدينة بالبلدة القديمة، إلى جانب مخطط جديد يهدف إلى ربط مجمع البوابة بمجمع ماميلا التجاري (مأمن الله) عبر ممر تحت الأرض. تم ترميم باب الجديد خلال عام 2020، كما تم ترميم باب المغاربة وحي سلوان وربطه بممرات تحت الأرض، إلى جانب تمديد جزئي مع مدخل الباب (باب المغربة). وبهذا المعنى، يرى الباحث تأخر تطوير منطقة باب العامود نسبيًا لانشغال سلطات الاحتلال بالإعدادات الأخرى في محيط البلدة القديمة.

ولكن في ظل كل ما يحدث، فإن الخطوة الأخيرة التي اتخذتها الشرطة الإسرائيلية هي جزء من اتجاهٍ أوسع، بدأ منذ أكثر من عقدٍ، واكتسب زخمًا خلال العام الماضي، ويتمثل بـ «المتحف الروماني بلازا تحت باب العامود» و «كهف صدقيا».



المُتْحَفُ الرُّومانيُّ بلازا تحت باب العامود:

كما ذكّرتُ سابقًا، فقد تمَّ بناءُ بابِ العامودِ لأوّلِ مرّةٍ في القرنِ الثّاني الميلاديّ. بناه الإمبراطورُ الرُّومانيُّ هادريان، كجزءٍ من خُطّته لِتصميمِ القدس، كمدينةٍ رومانيّةٍ أنموذجيّةٍ. كان لِيابِ العامودِ ثلاثُ بواباتٍ مُقنطرةٍ، وكانت بوابتها المركزيّةُ أوسعَ وأعلى من تلكِ الموجودةِ على كلا الجانبين. وكان هذا الشّكلُ بمثابةِ الأساسِ لِيابِ العامودِ، حتّى خلالِ فتراتٍ لاحقةٍ، وبالتالي تمَّ الحفاظُ عليه بالكامل تقريبًا.

تقعُ السّاحةُ القديمةُ أسفلَ بابِ العامودِ بحواليّ أربعة أمتارٍ تحت مُستوى الشارعِ الحاليّ. وتمَّ الكشفُ عن كاملِ هيكلِ البابِ الرُّومانيّ في الحفرياتِ التي أجراها مناحيم بيغن، في الفترة من 1979م إلى 1984م، ضمنَ مشروعِ بلديةِ (الاختلال) القدس؛ لِترميمِ بابِ العامودِ. وكجزءٍ من هذه المُخطّطات، فقد تمَّ بناءُ مُدرّجٍ من نوعٍ ما، خارجَ البوابةِ. ولهذا الغاية، تمَّ إخلاءُ عديدٍ من المحالِّ التجاريّةِ التي كانت موجودةً في السّابقِ داخلَ البوابةِ وحوّلها. وبعدَ الكشفِ عن هيكلِ البابِ الرُّومانيّ، وفي ضوئه أهمّيّته للبحثِ الأثريّ في القدس، تمَّ اتّخاذُ قرارٍ بفتحِ مُتحفٍ لِعرضه على الجمهورِ. المُتحفُ تحت الأرضِ، ويُمكنُ الوصولُ إليه عبرَ بابٍ يقعُ داخلَ بابِ العامودِ نفسه. بسببِ مشكلاتِ البنية التّحتيّة، أُغلقَ المُتحفُ في عام 2009م. وفي عام 2019م، أُعيدَ افتتاحُ المُتحفِ للزوّارِ حتّى تفتّشِي جائحةُ كورونا، في آذارٍ من العامِ الماضي.

كهفُ صِدْقيا (مغارة سليمان)

يقعُ مدخلُ الكهفِ بينَ بابِ العامودِ وبابِ هيرودس. وهو كهفٌ طبيعيٌّ تمَّ توسيعُه من خلالِ المحاجرِ. يُعدُّ الكهفُ واحدًا من أكبرِ الكهوفِ في البلادِ، على مساحةٍ 9000 مترٍ مرّبعٍ. يمتدُّ الكهفُ أسفلَ البلدةِ القديمةِ من الجدارِ الشّماليّ إلى طريقِ الآلامِ في الحيّ الإسلاميّ. تحتفظُ جدرانُ الكهفِ بِدلالاتِ المحاجرِ، إلى جانبِ كتاباتٍ على الجدرانِ من العصورِ القديمةِ والحديثةِ، باللّغاتِ العربيّةِ، والإنجليزيّةِ، واليونانيّةِ، والأرمنيّةِ. ومناطقُ

الكهفِ المُختلفةً مفصولةً بالجُدرانِ والصّواعدِ التي تركها عمال المناجم؛ لدعمِ سَقفِ مقلعِ الكهفِ.

في التّقاليدِ اليهوديّةِ والمسيحيّةِ، والإسلاميّةِ، أُطلقَ على الكهفِ أسماءً مُختلفةً تُنسبُ إلى مُعتقداتٍ مُختلفةٍ. في اليهوديّةِ، هناكَ تقليدٌ يعودُ تاريخُهُ إلى القرنِ السّادسِ عَشَرَ، حيثُ يُزعمُ أنّ المَلِكُ صِدْقيا هَرَبَ إلى هذا الكهفِ في أثناءِ تدميرِ الهيكلِ الأوّلِ. وكان يُشارُ إليه أيضًا باسمِ نَفَقِ حِرْقيا. والاسمُ الإنكليزيُّ للكهفِ هو «مَاجِرُ المَلِكِ سليمانَ». وَفَقًا لهذا المُعتقَدِ، استخرَجَ سليمانُ الحجارةَ المُستخدمةَ في بناءِ الهيكلِ من هذا الكهفِ. مُتأثرينَ بهذا المُعتقَدِ، يُطلقُ عليه المسلمونَ اسمَ كهفِ الملوِكِ. كما يُشارُ إليه على أَنَّهُ كهفُ كوراشِ، والموقِعُ الذي ابتلَعَت فيه الأرضُ كوراشَ وأتباعَهُ.

حتّى القرنِ السّادسِ عَشَرَ، ظلَّ الكهفُ مفتوحًا، وتمَّ توثيقُهُ جيّدًا في أوصافِ عديدٍ منَ الرُّوَاةِ الَّذِينَ سافروا إلى الموقِعِ. لكنْ في عهدِ السُّلطانِ سليمانَ القانونيِّ، أمرَ ببناءِ سورِ المدينةِ، وسدَّ الكهفِ لمنعِ الأعداءِ منَ دخولِ المدينةِ. أعادَ الطَّيِّبُ البرِيطانيُّ وعالمُ الكِتابِ المُقدَّسِ جيمس باركلي، اكتِشافَ الكهفِ بعدَ أن انزَلتْ كَلْبُهُ إلى الدّاخِلِ. وفي البدايةِ دَخَلَ الكهفَ مُنكرًا بزِيٍّ عربيٍّ، ولكنْ بعدَ نَشْرِ وجودِهِ أصبحَ موضوعَ كثيرٍ منَ البحوثِ.

أعيدَ فتحُ الكهفِ في نهايةِ القرنِ التّاسعِ عَشَرَ، لكنَّهُ أُغلقَ مرّةً أُخرى، خلالَ الحربِ العالميّةِ الأولى. وظلَّ مُغلقًا حتّى الثمانينياتِ، عندما تمَّ نقلُ الكهفِ إلى شركةِ تطويرِ القدسِ الشَّرقيّةِ، التي رَتَّبَت مَسارًا وإنارةً، وأعادَت فَتَحَهُ للجُمهورِ. مَعَ اندِلاعِ الأنتفاضةِ الثّانيةِ في عامِ 2000م، أُغلقَ مرّةً أُخرى، وأُعيدَ فَتَحَ أبوابِهِ للرُّوَاةِ في عامِ 2006م.

منذُ عامِ 2016م، رَوَّجَتْ شركةُ تطويرِ القدسِ الشَّرقيّةِ (التّابعةُ لبلديّةِ الاختِلالِ) لِعِدَدٍ منَ الخُطَطِ لزيادةِ التّطويرِ السِّياحيِّ في كهفِ صِدْقيا. الغرضُ منَ هذا التّطويرِ هو جَذْبُ السِّياحِ والإسرائيليينَ إلى هذا الجزءِ منَ القدسِ. وَتَشْمُلُ هذِهِ الخُطَطُ، منَ بَينِ أمورٍ أُخرى، فَتَحَ «مَرِّ زحفٍ» يَمُرُّ عَبرَ الجزءِ الشَّمالِيِّ منَ الكهفِ عَبرَ أنفاقٍ لم تَكُنْ مَفتوحَةً للجُمهورِ في السّابقِ. علاوةً على ذلكَ، أصبحَ كهفُ صِدْقيا، في السَّنواتِ الأخيرةِ، أحدَ النِّقاطِ



المَحَوْرِيَّة لمُهرِجانِ الأضواء، حيثُ أُقيمتْ تَرْكيباتُ الإضاءةِ في جميعِ أنحاءِ المدينةِ. إضافةً إلى ذلك، أُصْبِحَ كَهْفُ صِدْقِيَا مَوْقِعًا شَهيرًا لإقامةِ الأحداثِ، والعُرُوضِ الموسيقِيَّةِ.

حيُّ الأعمالِ المركزيِّ في القدسِ الشَّرقيَّةِ

تمَّ تقديمُ خُطَّةِ مَنْطِقَةِ الأعمالِ المركزيَّةِ في القدسِ الشَّرقيَّةِ إلى لُجْنَةِ التَّخْطِيطِ والبناءِ، وهي بلديةُّ القدسِ، في أيَّارٍ من عامِ 2020م. تُقدِّمُ بلديةُّ القدسِ ذلكَ كَجُزءٍ من خُطَّتها الرِّئيسيةِ الَّتِي تَهْدُفُ إلى تحسِينِ حياةِ السُّكَّانِ، وتعزيزِ مَرَكزِ الأعمالِ في شَرْقِ المدينةِ. تدَّعي البلديةُّ أنَّ البرنامجِ سوفَ يَحدِّثُ القِطاعَ التِّجاريَّ والاستثماريَّ والسِّيَاحيَّ بتوفيرِ فُرُصِ العملِ، وَصَحِّ مِلايينِ الشُّواكلِ سنويًّا من بلديةِ الاحتلالِ. ولكنْ بينَ خَلْطِ للاستثمارِ الَّذِي يعودُ رِبعُه لجهاتٍ إسرائيليَّةٍ بِحِصَّتهِ الضَّخمةِ، وبينَ سَدِّ حاجاتِ السُّكَّانِ لِفُرُصِ العملِ، يَتِمُّ تمريرُ مِحطَّاتٍ تغزو التاريخَ وتَحترِقُ الثَّقافةَ، وتُعبِّرُ مِلامِحَ المدينةِ، وتَمسُحُ تدرِجيًّا الذَّاكرةَ الجُمعيَّةَ، وتَدسُّ وإِعْمًا يَصيرُ حَقِيقَةً تدرِجيًّا.

وتُعدُّ مَنْطِقَةُ بابِ العامودِ هي الخُطَّةُ أو المِبادِرةُ الأحدثُ في سِلسِلةِ الاستثماراتِ هذه. فبابُ العامودِ حَسَبَ تأكيدِ يونانانِ مزاراحي هي «البوابةُ الأكثرُ ملاءمةً لدُخولِ المدينةِ القديمةِ. لها مدخلٌ واسعٌ، ولا يَتطلَّبُ صعودَ التَّلِّ كما هو الحالُ معَ بابِ الجديدِ، أو بابِ صهيونَ. علاوةً على ذلك، فهي قريبةٌ من وَسَطِ القدسِ. بينما تدَّعي «إسرائيلُ» أنَّها تَهْدُفُ إلى تطويرِ المِنْطِقَةِ المحيطةِ بالبوابةِ، فهي تُعيدُ تعريفَ طابعها بِشكلٍ فعَّالٍ، وتُشجِّعُ السِّيَاحَةَ، وتزيِّدُ مِنَ الوجودِ الإسرائيليِّ؛ من أجلِ تقليصِ الطَّابعِ الفِلسطِينيِّ للمِنْطِقَةِ، أو إخفائه. يَجِبُ النَّظْرُ إلى الاثْتِباكاتِ الأخيرةِ على طولِ الدَّرجاتِ الحجريَّةِ لِسَاحةِ بابِ العامودِ في سياقِ طِفْرةِ التَّنميةِ هذه. رُبَّما كانَ قَلَقُ السُّلطاتِ من جُلوسِ الشَّبَابِ الفِلسطِينيِّينَ على الدَّرَجِ، مُجَرَّدَ فَصلٍ آخَرَ في الصِّراعِ على الهُويَّةِ والانتماءِ والسِّيادةِ، كما هو الحالُ معَ كثيرينَ في الحوضِ التَّاريخيِّ للمدينةِ القديمةِ. بعدَ عديدٍ من التَّغييراتِ على أبوابِ البلدةِ القديمةِ، أَصْبَحَتْ بَوَابَةُ العامودِ واحدةً من آخِرِ معاقِلِ هذا الصِّراعِ المُستمرِّ».

وأخيراً...

إذا ما تحيّلنا القدس كجسدٍ، فباب العامود هو رثتها. المتنفّس للناس وللحركة التجارية. فالتجمّعات التجارية المهمة تقع هناك، وتمتدُّ إلى السلطان سليمان، وشارع صلاح الدين من جهة، وإلى شارع نابلس والمصرارة من الجهة المقابلة، وصولاً إلى مركز المدينة، بشارع يافا.

هو الباب الوحيد للبلدة القديمة الذي يُعدُّ فلسطيني السيادة بجدارة. فباقي الأبواب تمّ تصفيئها من كونها عصباً، لتصبح شرايين جافة تُشكّل جزءاً من المشهد المتداخل بسيادة يهيمُن عليها الاحتلال.

والعصبُ هذا مُحتلّفٌ... فهو العصبُ التجاري المركزي للمدينة.

ليس غريباً أن تُحاول سُطاتُ الاحتلال في كلِّ مرّة، إغلاقَ البوابة ومنع الناس من التجمُّع والتّجُمُّع هناك. ليست غريبة التّشويهاً التي أقامها الاحتلال من بناء ثكنٍ عسكرية هناك.

فالخُطة لباب العامود أكبر بكثيرٍ ممّا نراه..

خُطة ليست بالسريّة... خُطة كما خطّط الاحتلال... إستراتيجية بعيدة المدى.

لذا... لنُحذِر من انتصاراتنا قصيرة المدى.

فالواقِع الذي فُرِضَ على المكان صار بثلاثِ ثكنٍ عسكرية إسمنتيّة، ونصباً تذكاريّاً تتشكّل من خلاله، كذلك، معالمُ المكان.

ولكن بالتأكيد هذه البداية فقط... بداية مع كلِّ انتصارٍ كبيرٍ لنا... يلحقه فُرُض واقِعٍ مريرٍ لا رجعة عنه.